خالد الرفاعي(*)

عزيز علينا يا شباب الدعوة في سورية أن نردّ إليكم أمانتكم الغالية (خالد الرفاعي) رحمه الله تعالى جثة هامدة ، وهو أغلى عندكم من نور العيون وحبات القلوب وبراعم الأمل في صحارى اليأس .

وعزيز علينا أن نرسل إلى والدته وزوجته وأطفاله وأهله نبأ الفاجعة الصاعق ، بدل بشرى الشفاء أو الأمـــل في الشفاء ، وألا يروا عندما يخرجون لاستقباله الولد البار ، والزوج الوفي ، والوالد الحنـــون ، والأخ الأخ ، والقريـــب القريب ، وألا يروا ذلك الشباب النادر ، والرجولة الفذة ، والأسارير الناطقة بالبشاشة والمحبة والنبـــل ، وألا يـــروا الحبيب الغالي الذي ودعوه في المطار بالدموع والآمال وهو مسافر إلى ألمانيا .. ألا يروا من ذلك كلـــه إلاّ التـــابوت المغلق على جسده الفاني الذي غاب عن العيون ، وقد رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية -إن شاء الله-

و لم تغن المحبة والأخوة هنا ، و لم يغن الجهد والبذل ، و لم يغن الطب والعلم مع قضاء الله عزَّ وجلَّ ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

ولا نتحدث إليكم اليوم في هذه الكلمات عن خالد ، فأنتم أعلم بخالد ، وللحديث الموضوعي عنه وقت غير هذا الوقت ، ومجال غير هذا المجال ، ولكن من حقكم علينا ، ومن حق الدعوة ، ومن حق القدوة الصالحة ، أن نرســـم لكم بعض الملامح من حياته في أيامه الأخيرة عندنا قبل الموت .

ما رأينا -يا إخوة خالد- أربط من فقيدكم الغالي جأشاً ، وأرضى نفساً ، وأكثر تسليماً واطمئناناً لقضاء الله عزَّ وجلّ ..

لقد وصل إلى ألمانيا وقد بلغ المرض الخبيث عنده منتهاه ، وكان يعلم بأصل المرض وخطره ، ويتجرع آلامـــه ، ويكابد آثاره ، فلا يكاد يتمكن في بعض أيامه من رفع رأسه عن الوساد ، أو الاستواء جالساً في الفراش ، فقد كان السرطان داخل جمجمته كما كشف الفحص الأخير ، ومع ذلك فلم تفارق البسمة شفتيه في معظم الأحـــوال ، و لم يسمعه أحد منا يشكو أو يتأوه أو يزيد عندما يشتد عليه الحال على قوله : الحمد لله .

وكان إذا جلس إخوانه إليه ، أو حفوا به ، في بيت الأخ نديم ، أو في غرفته في المستشفى ، يشيع في المجلس -ما ملك القدرة على الجلوس أو الكلام- جواً من الأنس ، والدعابة الحلوة ، ينسى فيه إخوانه أنهم في المستـــشفى ، وفي عيادة مريض يقف على أبواب الموت ، وقد لا تمتد به الحياة إلاّ أياماً معدودات .. وتمضي معه الساعات ولا يحـــس

إخوانه بمضي الساعات ، ولولا ما يعرفونه من حقيقة مرضه ووضعه ، وما يرون من هموم المسلمين –عندما يتحدث عن المسلمين– في قلبه وفكره وكلامه ، لظنوا أنه أخلى الناس قلباً وفكراً ، وأنه أسعد الناس .

وكان الأساتذة والأطباء والممرضات الألمان يشهدون خلال الفحوصات والزيارات من قوة شخصيته ، وصـــلابة إرادته وانتصارها على الألم والضعف البشري ، ومن طمأنينة نفسه ، وطلاقة وجهه ، وتقبله لكل نتيجة من نتـــائج الفحص بنفس الوجه والملامح .. ما يملك عليهم أنفسهم دهشة وإعجاباً وتأثراً ، وكانوا يقولون بـــأنهم مـــا رأوا في حياتهم المهنية الطويلة أصبر من هذا الرجل ، ولا أشجع ، ولا أعظم يقيناً بالله ، وثقة به ، وتسليماً لـــه ، ورضـــى بقضائه وقدره .

وكان –رحمه الله– لا يكاد يتحدث عن نفسه أو أموره الخاصة إلاّ قليلاً جداً ، إنما كـــان حديثـــه –في أكثـــر الأحيان– عن الإسلام والمسلمين ، وعن العمل والعاملين ، وعن مشكلات العمل الإسلاميّ وظروفه ، وعن حاجاته وواجباته في الحاضر والمستقبل ..

وكان إخوته الذين تركهم وراءه ، معه في كل نبضة من نبضات قلبه ، وومضة من ومضات عقله –كما كـــان يخيل إلينا في بعض الأحيان–

كان يستحضرهم في فكره جملة ، وكان يستحضر كثيراً منهم فرداً فرداً حتى كأنهم معه ، وكأنه معهم يعـــيش بينهم .. وكان يتحدث عنهم بعاطفة أخوية غامرة ، وبمحبة وحنان قليل المثال .. ولم تفارقه قط صورة هؤلاء الإخوة وقد خرجوا يودعونه –رغم الظروف المعروفة– في المطار .. وقد حدثنا عن ذلك مرات أحاديـــث تفـــيض بالتـــأثر والامتنان .

لقد انطبعت صورة إخوانه هؤلاء ، وصورة محبتهم ووفائهم على لوحة قلبه بقوة وعمق ، وكتب الله عزَّ وجلَّ أن تكون هذه الصورة العزيزة آخر لقائه في الدنيا بإخوته وأحبابه في الشام ، وآخر وداع في هذه الدار الفانية ، ليكـــون اللقاء الدائم في ظل عرش الله –إن شاء الله– في تلك الدار .

ولقد تحدث إلينا –رحمه الله– مرة عن نفسه فقال :

{أنا لم أطلب العلاج –علم الله– حباً في الدنيا ، ولا رغبة في البقاء للبقاء ، ولكن طلبته أخذاً بالأسباب كما أمر الله ، وأملاً في خدمة أكبر للإسلام والمسلمين ، وفي ميتة هي الحياة ، في ميادين الجهاد .

ولست أخاف الموت فهو حتم على كل حيّ ، وما عند الله خير من الدنيا وما فيها ، وثقتي برحمة الله وفـــضله لا تعرف الحدود ، وما أرضاني بقضاء الله ، وما أسعدني بلقائه في كل وقت من الأوقات .

ولا أخشى على أسرتي فقد تركت لها الله إذ لم أترك لها شيئاً من متاع الدنيا .. وأنا واثــق برعايــة الله لأمــي وزوجتي وأطفالي ..

ولكنني أحزن لحزن إخواني في موكب الدعوة والجهاد عندما يفتقدونني بينهم إذا مت ، ويتلفتون فيجدون مكاني خالياً في الصف .

وأحزن لحزن الشباب الذين كنت أتمنى أن أسير معهم مرحلة أخرى ، وأن أمدهم من عصارة روحي وفكــري وحياتي بما يساعدهم على النمو السريع السليم ، ويثبت أقدامهم على طريق الحق .

وأحزن لحزن هؤلاء الإخوة والأصدقاء والجيران وأصحاب الحاجات الذين تعودوا أن يزوروني في بيتي ، إذا طرقوا عليّ الباب فلم ينفتح لهم الباب كالمعتاد ، و لم يجدوني في استقبالهم وخدمتهم} .

هذه –يا شباب الدعوة– بعض الملامح من حياة فقيدكم الغالي في أيامه الأخيرة عندنا في ألمانيا قبــل المــوت .. بعض الملامح وليس كل الملامح ، فصورة خالد الرائعة المؤثرة في هذه الأيام تحتاج في رسمها إلى صفحات وصفحات –إن استطاع القلم أن ينقل روعة الحقيقة إلى القرطاس– وهيهات هيهات .

ورحم الله أخانا الحبيب

لقد غاب أحوج ما يكون المسلمون إلى أمثاله ، وترك وراءه فراغاً واسعاً لا يسد .

وسيطول الحزن على (أبي أيمن) ما طال الطريق ، واحلولك الظلام ، وافتقد الــسارون المــؤمنين الــصابرين ، والرجال الثابتين المصممين ، والقادة المقتدرين المتجردين ، والدعاة الهداة الواعين المخلصين ، الذين يوقدون مشاعلهم بدم القلب ، ويبذلون حياتهم كلها في سبيل الله ، ليكشفوا معالم الحق ، وينيروا السبيل الموصل إلى مرضــاة الله عــزَّ وجلَّ ، وإلى خير الدنيا والآخرة .

(*) هو الأستاذ المربي القدوة الداعية الصادق الزاهد المجاهد خالد الرفاعي رحمه الله تعالى . وصل إلى ألمانيا للعلاج في ١٥ شعبان ١٣٩٣هـ – ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٧٣م ، ووافاه الأجل المحتوم في ١٥ رمضان ١٣٩٣هـ – ١١ تــشرين الأول/اكتــوبر ١٩٧٣م في مستشفى الجامعة في فرانكفورت وهو جالس يصلي في السرير ، وله من العمر أربعون سنة .